تفسير إبن كثير

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ

وقوله : (ياأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي) : هذا أدب ثان أدب االله به المؤمنين ألا يرفعوا أصواتهم بين يدي النبي - صلى االله عليه وسلم - [فوق صوته] . وقد روي أنها نزلت في الشيخين أبي بكر وعمر ، رضي االله عنهما .وقال البخاري : حدثنا بسرة بن صفوان اللخمي ، حدثنا نافع بن عمر ، عن ابن أبي مليكة قال : كاد الخيران أن يهلكا ، أبو بكر وعمر ، رضي االله عنهما ، رفعا أصواتهما عند النبي - صلى االله عليه وسلم - حين قدم عليه ركب بني تميم ، فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس أخي بني مجاشع ، وأشار الآخر برجل آخر - قال نافع : لا أحفظ اسمه - فقال أبو بكر لعمر : ما أردت إلا خلافي . قال : ما أردت خلافك . فارتفعت أصواتهما في ذلك ، فأنزل االله : (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض) الآية ، قال ابن الزبير : فما كان عمر يسمع رسول االله - صلى االله عليه

وسلم - بعد هذه الآية حتى يستفهمه ، ولم يذكر ذلك عن أبيه : يعني أبا بكر رضي االله عنه . انفرد به دون مسلم .ثم قال البخاري : حدثنا حسن بن محمد ، حدثنا حجاج ، عن ابن جريج ، حدثني ابن أبي مليكة : أن عبد االله بن الزبير أخبره : أنه قدم ركب من بني تميم على النبي - صلى االله عليه وسلم - فقال أبو بكر : أمر القعقاع بن معبد . وقال عمر : بل أمر الأقرع بن حابس ، فقال أبو بكر : ما أردت إلى - أو : إلا - خلافي . فقال عمر : ما أردت خلافك ، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما ، فنزلت في ذلك : (يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي االله ورسوله) ، حتى انقضت الآية ، (ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم) الآية [الحجرات : 5] .وهكذا رواه هاهنا منفردا به أيضا .وقال الحافظ أبو بكر البزار في مسنده : حدثنا الفضل بن سهل ، حدثنا إسحاق بن منصور ، حدثنا حصين بن عمر ، عن مخارق ، عن طارق بن شهاب ، عن أبي بكر الصديق قال : لما نزلت هذه الآية : (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي) ، قلت : يا رسول االله ، واالله لا أكلمك إلا كأخي السرار .حصين بن عمر هذا - وإن كان ضعيفا - لكن قد رويناه من حديث عبد الرحمن بن عوف ، وأبي هريرة [رضي االله عنه] بنحو ذلك ،

واالله أعلم .وقال البخاري : حدثنا علي بن عبد االله ، حدثنا أزهر بن سعد ، أخبرنا ابن عون ، أنبأني موسى بن أنس ، عن أنس بن مالك رضي االله عنه ، أن النبي - صلى االله عليه وسلم - افتقد ثابت بن قيس ، فقال رجل : يا رسول االله ، أنا أعلم لك علمه . فأتاه فوجده في بيته منكسا رأسه ، فقال له : ما شأنك ؟ فقال : شر ، كان يرفع صوته فوق صوت النبي - صلى االله عليه وسلم - فقد حبط عمله ، فهو من أهل النار . فأتى الرجل النبي - صلى االله عليه وسلم - فأخبره أنه قال كذا وكذا ، قال موسى : فرجع إليه المرة الآخرة ببشارة عظيمة فقال : " اذهب إليه فقل له : إنك لست من أهل النار ، ولكنك من أهل الجنة " تفرد به البخاري من هذا الوجه .وقال الإمام أحمد : حدثنا هاشم ، حدثنا سليمان بن المغيرة ، عن ثابت ، عن أنس قال : لما نزلت هذه الآية : (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي) إلى : (وأنتم لا تشعرون) ، وكان ثابت بن قيس بن الشماس رفيع الصوت فقال : أنا الذي كنت أرفع صوتي على رسول االله - صلى االله عليه وسلم - حبط عملي ، أنا من أهل النار ، وجلس في أهله حزينا ، ففقده رسول االله - صلى االله عليه وسلم - فانطلق بعض القوم إليه فقالوا له : تفقدك رسول االله - صلى االله

عليه وسلم - ما لك ؟ قال : أنا الذي أرفع صوتي فوق صوت النبي - صلى االله عليه وسلم - وأجهر له بالقول حبط عملي ، أنا من أهل النار . فأتوا النبي - صلى االله عليه وسلم - فأخبروه بما قال ، فقال : " لا بل هو من أهل الجنة " . قال أنس : فكنا نراه يمشي بين أظهرنا ، ونحن نعلم أنه من أهل الجنة . فلما كان يوم اليمامة كان فينا بعض الانكشاف ، فجاء ثابت بن قيس بن شماس ، وقد تحنط ولبس كفنه ، فقال : بئسما تعودون أقرانكم . فقاتلهم حتى قتل .وقال مسلم : حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة ، حدثنا الحسن بن موسى ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن ثابت البناني ، عن أنس بن مالك قال : لما نزلت هذه الآية : (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي) إلى آخر الآية ، جلس ثابت في بيته ، قال : أنا من أهل النار . واحتبس عن النبي - صلى االله عليه وسلم - فقال النبي - صلى االله عليه وسلم - لسعد بن معاذ : " يا أبا عمرو ، ما شأن ثابت ؟ أشتكى ؟ " فقال سعد : إنه لجاري ، وما علمت له بشكوى . قال : فأتاه سعد فذكر له قول رسول االله - صلى االله عليه وسلم - فقال ثابت : أنزلت هذه الآية ، ولقد علمتم أني من أرفعكم صوتا على رسول االله - صلى االله عليه وسلم - فأنا من أهل النار . فذكر ذلك سعد للنبي - صلى

االله عليه وسلم - فقال رسول االله - صلى االله عليه وسلم - : " بل هو من أهل الجنة "

.ثم رواه مسلم عن أحمد بن سعيد الدارمي ، عن حيان بن هلال ، عن سليمان بن المغيرة

، به ، قال : ولم يذكر سعد بن معاذ . وعن قطن بن نسير عن جعفر بن سليمان ، عن

ثابت ، عن أنس بنحوه . وقال : ليس فيه ذكر سعد بن معاذ .حدثنا هريم بن عبد الأعلى

الأسدي ، حدثنا المعتمر بن سليمان ، سمعت أبي يذكر عن ثابت ، عن أنس قال : لما

نزلت هذه الآية ، واقتص الحديث ، ولم يذكر سعد بن معاذ ، وزاد : فكنا نراه يمشي بين

أظهرنا رجل من أهل الجنة . .فهذه الطرق الثلاث معللة لرواية حماد بن سلمة ، فيما تفرد

به من ذكر سعد بن معاذ . والصحيح : أن حال نزول هذه الآية لم يكن سعد بن معاذ

موجودا ; لأنه كان قد مات بعد بني قريظة بأيام قلائل سنة خمس ، وهذه الآية نزلت

في وفد بني تميم ، والوفود إنما تواتروا في سنة تسع من الهجرة ، واالله أعلم .وقال ابن

جرير : حدثنا أبو كريب ، حدثنا زيد بن الحباب ، حدثنا أبو ثابت بن ثابت بن قيس بن

شماس ، حدثني عمي إسماعيل بن محمد بن ثابت بن قيس بن شماس ، عن أبيه قال :

لما نزلت هذه الآية : (لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول) قال :

قعد ثابت بن قيس في الطريق يبكي ، قال : فمر به عاصم بن عدي من بني العجلان ، فقال : ما يبكيك يا ثابت ؟ قال : هذه الآية ، أتخوف أن تكون نزلت في وأنا صيت ، رفيع الصوت . قال : فمضى عاصم بن عدي إلى رسول االله - صلى االله عليه وسلم - قال : وغلبه البكاء ، فأتى امرأته جميلة ابنة عبد االله بن أبي ابن سلول فقال لها : إذا دخلت بيت فرسي فشدي علي الضبة بمسمار فضربته بمسمار حتى إذا خرج عطفه ، وقال : لا أخرج حتى يتوفاني االله عز وجل ، أو يرضى عني رسول االله - صلى االله عليه وسلم - . قال : وأتى عاصم رسول االله - صلى االله عليه وسلم - فأخبره خبره ، فقال : " اذهب فادعه لي " . فجاء عاصم إلى المكان فلم يجده ، فجاء إلى أهله فوجده في بيت الفرس ، فقال له : إن رسول االله - صلى االله عليه وسلم - يدعوك . فقال : اكسر الضبة . قال : فخرجا فأتيا النبي - صلى االله عليه وسلم - فقال له رسول االله - صلى االله عليه وسلم - : " ما يبكيك يا ثابت ؟ " . فقال : أنا صيت وأتخوف أن تكون هذه الآية نزلت في : (لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول) . فقال له رسول االله - صلى االله عليه وسلم - : " أما ترضى أن تعيش حميدا ، وتقتل شهيدا ، وتدخل الجنة ؟ " . فقال :

رضيت ببشرى االله ورسوله - صلى االله عليه وسلم - ولا أرفع صوتي أبدا على صوت النبي - صلى االله عليه وسلم - .وقال العلماء : يكره رفع الصوت عند قبره ، كما كان يكره في حياته ; لأنه محترم حيا وفي قبره ، صلوات االله وسلامه عليه ، دائما . ثم نهى عن الجهر له بالقول كما يجهر الرجل لمخاطبه ممن عداه ، بل يخاطب بسكينة ووقار وتعظيم ; ولهذا قال : (ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض) ، كما قال : (لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا) [النور : 63] .وقوله : (أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون) أي : إنما نهيناكم عن رفع الصوت عنده خشية أن يغضب من ذلك ، فيغضب االله لغضبه ، فيحبط االله عمل من أغضبه وهو لا يدري ، كما جاء في الصحيح : " إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان االله لا يلقي لها بالا يكتب له بها الجنة . وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط االله لا يلقي لها بالا يهوي بها في النار أبعد ما بين السماوات والأرض " .ثم ندب االله عز وجل ، إلى خفض الصوت عنده ، وحث على ذلك ، وأرشد إليه ، ورغب فيه ، فقال : (إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول االله أولئك الذين امتحن االله قلوبهم للتقوى) أي : أخلصها لها وجعلها أهلا ومحلا (لهم

مغفرة وأجر عظيم) .وقد قال الإمام أحمد في كتاب الزهد : حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا سفيان ، عن منصور ، عن مجاهد ، قال : كتب إلى عمر يا أمير المؤمنين ، رجل لا يشتهي المعصية ولا يعمل بها ، أفضل ، أم رجل يشتهي المعصية ولا يعمل بها ؟ فكتب عمر ، رضي االله عنه : إن الذين يشتهون المعصية ولا يعملون بها (أولئك الذين امتحن االله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم) . قال : وأنزل االله : (إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول االله أولئك الذين امتحن االله قلوبهم للتقوى) .وقد ذكر هذه القصة غير واحد من التابعين كذلك ، فقد نهى االله عز وجل ، عن رفع الأصوات بحضرة رسول االله - صلى االله عليه وسلم - وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب [رضي االله عنه] أنه سمع صوت رجلين في مسجد رسول االله - صلى االله عليه وسلم - قد ارتفعت أصواتهما ، فجاء ، فقال : أتدريان أين أنتما ؟ ثم قال : من أين أنتما ؟ قالا : من أهل الطائف . فقال : لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضربا . وقال العلماء : يكره رفع الصوت عند قبره ، كما كان يكره في حياته ; لأنه محترم حيا وفي قبره ، صلوات االله وسلامه عليه ، دائما . ثم نهى عن الجهر له بالقول كما يجهر الرجل لمخاطبه ممن عداه ،

بل يخاطب بسكينة ووقار وتعظيم ; ولهذا قال : (ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض) ، كما قال : (لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا) [النور : 63] .وقوله : (أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون) أي : إنما نهيناكم عن رفع الصوت عنده خشية أن يغضب من ذلك ، فيغضب االله لغضبه ، فيحبط االله عمل من أغضبه وهو لا يدري ، كما جاء في الصحيح : " إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان االله لا يلقي لها بالا يكتب له بها الجنة . وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط االله لا يلقي لها بالا يهوي بها في النار أبعد ما بين السماوات والأرض " .